الهجاء السياسى فى مسرحيات أريسطوفان

من الأمور التى تتردد عادة على خاطر المشتغلين بالأدب كلما عرض متحدث أمامهم لكاتب من الكتاب المعاصرين التساؤل عن آثار هذا الشاعر أو القصص أفيها مايضمن لها شيئاً من البقاء والتأثير فى نفوس الأجيال المقبلة ؟ وليس من الغريب أو النادر أن نرى النقاد يتحدثون عن بعض الكتّاب قاطعين بثقة أن مؤلفاتهم ذاهبة دون شك مع سيرتهم . و يمر الزمان بالناقد فيظهر صدق حكمه أو كذبه ، وتأتى الأيام أحياناً بعكس ما كان يتوقع البعض ، فيكف الناس عن قراءة كتب كان المعاصرون يخالونها خالدة ، ويتهالك الناس على مؤلفات كان الجميع يتحدثون عنها يوم نشرها فى شئ من الاستخفاف والاحتقار . وأقطع مثل لذلك فولتير الذى كان يظن ويظن معه الناس أن رواياته المسرحية هى أحسن ماأنتج ، وأن قصصه الفلسفية ليست إلا مداعبات فنية أراد فولتير أن يشغل بها أوقات فراغه ليلهو بها القارئ ويستريح إليها من التفكير المضنى . والواقع أن مسرحيات فولتير لا يقرؤها اليوم إلا الباحث فى أدب القرن الثامن عشر عامة ، وفى آثار فولتير بنوع خاص ، على حين تتعاقب طبعات قصصه الفلسفية ويتسابق الفنانون إلى إخراجها فى أناقة مزينة بالصور والرسوم .

و إذا كان الشعر من الآثار الفنية التى تبقى حية لما فيها من وصف خالد للشعور ، ومن صور لتجارب إنسانية يعانيها كل فرد ، ومن إيحاء إلى آمال وأحلام ملازمة لكل عصر ولكل جيل ، فالمسرحيات والهزلية منها بنوع خاص تقل فيها تلك العناصر . وقد استنبط برجسون فى كتابه — وعنوانه «الضحك» — الأسباب التى تدفعنا إلى الضحك ، وخصص ناحية من بحثه للايحاء ووصفه بالعنصر الأساسى للضحك . وقد يضطر الكاتب فى أكثر من مناسبة ليثير الضحك (ومن الكتاب من ينسى أن الضحك على أنواعه هو الغرض الأخير لكل المسرحيات الهزلية)

إلى استغلال حوادث تاريخية أو أوضاع اجتماعية أو شخصيات سياسية يكفى أن يشير إليها ليضمن لروايته النجاح وللمتفرجين السلوة والمرح .

وفى مسرحيات أريسطوفان إشارات لا نضحك لها إلا بعد الرجوع إلى البيئة التى عاش فيها والوقائع التى يسخر منها أى — بعبارة أخرى — بعد الرجوع إلى التاريخ اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ فتكشف لنا وقتئذ الكلمات عن معان كنا نجهلها ، وتثير العبارات ضحكا كان يردّنا عنه جهلنا لما تحتويه من دوافع إلى الضحك . وقد نشأت فكرة هذا البحث عن حرصنا على ألا تفوتنا فرصة للضحك ، وعن اطلاعنا على بعض المراجع مثل تاريخ الأدب اليونانى « لألكسيس بيرون سنة ١٨٩٤ والجزء الثالث من تاريخ الأدب نفسه لألفريد وموريس كروزيه سنة ١٩١٣ ودراسات فى أدب أريسطوفان لإميل ديشانيل سنة ١٨٧٦ والمقدمة لآثار أريسطوفان فى مجموعة بوديه G. Budé بقلم فيكتور كولون ، والتعليقات على كل رواية بقلم فان ديل سنة ١٩٣٤ ؛ وأخيراً الكتاب القيم عن أريسطوفان والأحزاب فى أثينا بقلم موريس كروزيه سنة ١٩٠٦ » . ولما كان الهجاء على اختلاف أنواعه من ضروب الأدب الفردى المتصل بحياة الكاتب ، فسنحاول أن نعطى القارئ فكرة وجيزة عن أريسطوفان وعن بعض مؤلفاته .

من الأجزاء التى تتكون منها المسرحيات الهزلية اليونانية جزء يسمى « الاستطراد » parabase وهو عادة فى آخر النصف الأول من المسرحية ، يتجه فيه الشاعر مباشرة إلى مستمعيه . وهو فى أغلب الأحيان حديث يفتخر فيه تارة صاحبه بما أقدم عليه من عمل جرئ فى محاربته أو نقده لحاكم أو زعيم ، وتارة أخرى يؤاخذ الحاضرين على سوء إدراكهم لرواية سابقة ، أو يطلعهم على ما يجول فى نفسه من شك أو أمل أو قنوط كلما فكر فى هذا الزعيم أو ذاك من المستبدين بالشعب المسيطرين على عقله المزدرين لشعوره . وسيرة أريسطوفان التى نقرؤها فى التراجم القديمة وفى الكتب الحديثة عن الأدب اليونانى نجد تفاصيلها منتشرة فى المسرحيات التى وصلتنا فى صفحات الاستطراد الذى أشرنا إليه .

وكذلك نعلم أن أريسطوفان ولد فى نحو سنة ٤٤٥ ق.م وكان أبواه فيليب وزينودورا من أحرار الأثينيين . وكان لأسرته فى مدينة ايجين حيث استقرت سنة ٤٣٠ أرض تستغلها وقد يتعذر علينا أن نعرف بدقة المبادئ التى شب عليها

أريسطوفان والعوامل الثقافية التى أثرت فى تكوين عقله . ولكن هناك أمراً لاريب فيه ، وهو أن عبقرية أريسطوفان ظهرت جليا وهو فى الثامنة عشرة من عمره فى مسرحية نال بها الجائزة الثانية فى مسابقة سنة ٤٢٧ وفى العام التالى مثلت له مسرحية « البابيليين » وهى عبارة عن نقد عنيف لسياسة عهده وهجاء لاذع يقذف به الزعيم كليون . ولم يغفر له كليون هذه الجرأة بل قدمه أمام مجلس الشيوخ لمحاكمته . ولم يكن أريسطوفان من الذين تهزهم المحن أو تثبط هممهم . ففى سنة ٤٢٥ قدم مسرحية « الأكرنيين » ثم « الفرسان » سنة ٤٢٤ وهى أكثر مسرحياته شجاعة وأشنعها هجاء . ومع شهرته الواسعة فانه لم يحصل فى سنة ٤٢٣ إلا على المرتبة الثالثة بمسرحية « السحاب » التى عرض فيها لأساليب التربية الجديدة ، كما أخذ يسخر سنة ٤٢٢ من داء القضاء فى مسرحية عنوانها « الزنابير » وقد تبعتها مسرحية « السلم » سنة ٤٢١ و «العصافير» سنة ٤١٤ و «ليزيزترات» سنة ٤١١ و«بلوتوس» سنة ٤٠٩ . وفى سنة ٤٠٥ لأول مرة فاز بالمرتبة الأولى بمسرحية « الضفادع » وهى خير ما أنتج فى الهجاء الأدبى ونجد فيها مقارنة بين أوريبيدوس و إسكيلوس .

وفى ذلك الحين حدث انقلاب فى أثينا عندما قهرها ليزندر ، فماجت الحياة واضطر الشعب أن يلجأ إلى العنف والحرب الأهلية ليخلص من نير « الثلاثين » وليعيد نظام الديمقراطية . كل هذا أضعف الدولة وصرف الجماهير عن اللهو البرىء وعن إقامة الحفلات . وأول من فطن لهذا التغيير هو أرسطوفان ، فتمشى مع الروح الجديدة وساير معاصريه ، فلم يتحفهم بمثل المسرحيات الخالدة التى أشرنا إليها ولم يطرق باب الهجاء السياسى كما ألفه فى أول عهده بالمسرح ولكنه لم يكف عن الإنتاج الأدبى . ففى سنة ٣٩٢ مثلت له مسرحية « جمعية النساء » وهو يسخر فيها من النظريات الشيوعية التى كانت موضع جدال فى المدارس الفلسفية . وعاد سنة ٣٨٨ إلى مسرحية «بلوتس» فعدّل فيها وبدل، وهى أيضاً من القصص الاجتماعية الخطيرة عن مشكلة توزيع الأموال . وينقطع هنا عهدنا بأرسطوفان ولا نجد فائدة من ذكر المسرحيات التى لا نعرف منها إلاعناوينها أو بعض أشعار ضئيلة . وحسبنا أن نعرف أن عدد مسرحيات أريسطونان على أقل تقدير ٤٤ مسرحية ، وأن من بين المؤرخين من يعتقد أنه ٥٤ مسرحية . وعلى كل حال فقد بلغتنا إحدى عشرة منها .

ولما كان أريسطوفان ينشر مسرحياته بعد زمن قصير من تمثيلها ، فالنص الذى نقرؤه اليوم صورة للنص الأول الذى أشرف المؤلف على نسخه .

مما يقرب المسرحيات الهزلية إلى الحقائق الواقعية اتجاهها نحو الهجاء . وهناك ثلاثة موضوعات حاول الكتّاب أن يعالجوها فى مؤلفاتهم ، وهى الأخلاق والعادات من جهة ، والسياسة من جهة أخرى ، والآداب من جهة ثالثة . وشاعر مثل أريسطوفان ترك لنا فيما ترك من مسرحيات نقداً شاملا لعصره من النواحى الثلاث التى ذكرناها . ونحن لا ننظر اليوم إلا فى مسرحياته السياسية مع ملاحظة أن الهجاء السياسى ، وإن كان العنصر الجوهرى فى بعض مسرحياته ، متكرر فى أغلبها على شكل إشارة أو تلميح . وقد اضطر أريسطوفان كغيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أن يثير العواطف القومية السائدة فى عصره — تلك التى كانت لاتمس حتى يجأر الشعب بسخريته ونقده وتهكمه . ولابد من هذا الانسجام بين الجمهور والكاتب ، وبين موضوع الرواية والأمور التى تشغل بال الجمهور ، ليجوز الضحك ويستساغ الهجاء .

ولقد تواترت مسرحيات أريسطوفان وتلاحقت معها أساليب من الهجاء انفرد بإبداعها وبرع فى استعمالها ، فجاءت مرآة صادقة لما كان يتردد على ألسنة الأثينيين ويغلى فى قلوبهم من غضب وبغض واستنكار . وربما صادفوا من أريسطوفان هجاء يمسهم فيما ألفوه من عادات ودأبوا عليه من آراء ؛ غير أنهم كانوا يقبلون نقده وسخريته لما كانوا يعترفون له به من الإصابة فيما بينهم وبين أنفسهم وهم المشهورون بحدة ذكائهم وحسن إدراكهم للأمور . ونحن عندما نعكف على دراسة الهجاء السياسى عند أريسطوفان تستوقفنا تفاصيل ربما كان الأثينيون يمرون بها مسرعين ، وتضيف إلى مشاعرنا أغراضاً ربما لم يعرض لها إلا مصادفة ، ونعجب لآراء جريئة ربما صدرت عنه عفواً ، ولانمعن النظر فى ألوان من النقد ربما كان يعتبرها هو ومعاصروه أقوى مافى المسرحية من عتاب وهجاء . وإليك نبذة عن الروايات التى يعتبرها النقاد الذى قرأنا بحوثهم واقتبسنا منها الكثير فى صميم عالم السياسة .

ليست مسرحية « الاكرنيين » أول محاولة لأريسطوفان فى باب الهجاء السياسى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مسرحية عنوانها «البابيليون» نقد فيها الشاعر

كليون نقداً مباشراً منددا بالزعيم المتملق للشعب العابث بأموال الدولة . أما مسرحية «الأكرنيين» التى تهمنا الآن فاننا نفهم من سياق الحديث أنها كتبت تحت تأثير الغضب والأخذ بالثأر ؛ لأن كليون أبى إلا أن يقابل غلو الشاعر فى النقد بشئ من العنف . والمسرحية دفاع عن السلم ؛ فقد طال النزاع وسفك الدماء والعذاب ، ولم يتوقع فرد نهاية للحرب بين أثينا وسبرتا ؛ فقد عجز الأثينى ديكاييوبوليس عن حمل هيئة الشعب على درس شروط الصلح ، فلجأ إلى توقيع هدنة شخصية مع العدو ، فلم يستجب له أحد بادئ الأمر بل تهافت الجميع على لومه . ولكنه لم يضطرب لما شنوه عليه من عداء ، بل أخذ يثبت لهم أن الحرب بدعة بعض الساسة الطامعين فى المال واللذة حتى بلغ منهم قصده . واقتنعوا أن أقطع دليل على حسن تفكيره السعة التى كان يعيش فيها على مقربة من أناس يقاسون مر الحياة وبؤسها .

أما مسرحية « الفرسان » سنة ٤٢٤ فهى أول مسرحية يتقدم بها أريسطوفان باسمه . نرى خادمين ديموستين ونسيلس وهما يتظلمان إلى سيدهما ديموس (وهو يمثل شعب أثينا) من تصرفات البفلجونى (كليون) منذ دخوله البيت . وهما ذات يوم يستغلان نشوة زميلهما و إغراقه فى النوم ويسلبان نص التنبؤات التى كان يقرؤها من حين إلى حين على سيده لاستمالته ، فيقع بصرهما على نص يشير إلى قهر كليون و إذعانه لغالبه وهو بائع . . . ويمر بهما البائع ويعلم منهما ما فى الغيب من خير يخصه ومن مرتبة عالية سوف تسند إليه . ويحضه الخادمان على مطاردة كليون بمعاونة الفرسان وأهل الجاه . ثم يقبل كليون وهو يتأجج غيظاً ويفوه بالتهديد والنذير ، فيستعين ديموستين بالفرسان فيذيقه الفرسان ألواناً من الضرب لم تكن تخطر بباله . ويتشجع بائع المقانق فينشأ بينه وبين كليون نزاع شديد يخرج معه كليون مغلوباً ، ولكن يأبى إلا أن تكون له الكلمة الأخيرة ، فيطلب إلى منافسه أن يرفعا أمرهما إلى ديموس ليفصل بينهما . ويصغى ديموس إلى ثنائهما ويتقبل ما يجودان عليه من هدايا ، ثم يؤثر بائع المقانق على كليون ، ويعينه ناظراً على بيته ومدبراً لماله . ويأسف ديموس على ضلاله القديم ويقطع على نفسه عهداً بأن يعوض ما ضاع ويصلح ما فسد . وأخيراً يحكم على كليون بأن يرتدى ثوب بائع المقانق وبأن يتخذ حرفته ليبيع اللحم على أبواب المدينة .

ثم يستصحب ديمومن فتاة جميلة (وهى تمثل هدنة ثلاثين سنة) ليعيش معها فى الريف .

هذا ، ولا بد أن نرجع إلى تاريخ اليونان لندرك معنى رواية « السلم » ، فقد فاز كليون بثقة الديمقراطيين واستأنف القتال ضد سبرتا، ولكنه لقى حتفه فى معركة أنفيبوليس . وقد شعرت أثينا وسبرتا بعد حين بحاجة ماسة إلى السلم والسكينة . فجاهد كل من ملك سبرتا ونسياس زعيم الحزب المعتدل لإعادة الطمأنينة إلى النفوس ، واتفق الفريقان على توقيع الصلح على أن يرد كل فريق للآخر الأقطار التى استولى عليها أثناء الحرب مع احتفاظ أثينا بميناء فيسيا ، فدعت سبرتا حلفاءها للتشاور فوافق بعضهم على شروط الصلح واعترض عليها البعض لأسباب قومية واقتصادية . فكتب أريسطوفان مسرحيته ليشجع البعض على التمسك بنزعاتهم السلمية ولدعوة الآخرين إلى شئ من التأنى ، وهو من أجل ذلك لا يجادل فى السلم أهو مأمول أو محال ، وإنما يمثل عودة الحياة السهلة الهنيئة ليغرى بها قلوب الجميع .

ونستطيع الآن أن نلخص موضوع المسرحية فى كلمتين : يمتطى المزارع تريجيه دابة و يرتفع بها فى الهواء إلى أن يصل إلى الأولمب وقد هجره الآلهة تاركين مكانهم لعملاق يجسم الحرب ولرفيق له يهيئ نفسه لسحق المدن المتحاربة فى مهراس ضخم ، وآلهة السلم كامنة فى قاع مخفر على شكل كهف . و يجدّ اليونانيون على اختلاف ألوانهم لإخراج السلم من عزلتها ، وبعد مشقة وعناد يظهر تمثال السلم ، ويقدم الجميع الذبائح والقرابين ، وتنتهى المسرحية بالولائم والطرب .

وأخيراً يمكن اعتبار مسرحية « ليز يزترات » آخر محاولة من أريسطوفان لوقف القتال بين شعبى أثينا وسبرتا . قد منيت أثينا بالهزيمة فى صقلية وكان أجيس ملك سبرتا يحتل مدينة ديقلى على مسافة أربعة وعشرين كيلومتراً من أثينا فارتاع ، الشعب وفطن إلى ضرورة المقاومة . وفى أثناء ذلك تعاهدت سبرتا مع بلاد الفرس وضمنت ما كانت فى حاجة إليه من المال والأساطيل . فكتب أريسطوفان مسرحيته راجياً بامم البشرية أن ينصرف الجميع عن القتال ليدفعوا عن بلادهم شر الخضوع للأجنبى عدو المدنية ، ولا يهتم الشاعر بتحديد المسئولية وهو لا يريد شيئاً إلا أن يذكر أولئك وهؤلاء أنهم من أصل واحد و يربطهم

دين واحد ، وأن لهم حقوقاً كما أن عليهم واجبات ، وأن الأفضل أن يقدر كل واحد خطورة الموقف ويعمل على تصفية الجو والضمائر . فوجه أريسطوفان كلامه إلى نساء البلدين من زوجات وأمهات . وليوفق بين غرض كله جد وبين أصول المسرحية الهزلية اخترع الشاعر الموضوع الآتى :

« دعت ليزيزترات من النساء من يمثلن المدن المعادية ، وطلبت إليهن أن يتمردن على أزواجهن حتى يتم الصلح . فاحتجت واحدة منهن فى أول الأمر وكادت الفكرة تخفق لولا مهارة زعيمتهن . اقتنعت النساء شيئاً فشيئاً حتى قبلن وأقسمن ألا تلين الزوجة أمام زوجها أو على الأقل ألا تخضع له إذا لجأ إلى القوة إلا مضطرة ، ثم تحتل النساء وعلى رأسهن ليزيزترات حصن الأكروبول . وهنا تقدم جوقة الشيوخ لتصد النساء عن مقاومة لا طائل فيها وعن تشبث مضحك ومحزن فى آن واحد . ولكنهن يظهرن ثباتاً و إلحاحاً لا حد لها و يهددن الشيوخ . وأخيراً يأتى الرجال من كل صوب من حلفاء وأعداء ساخطين تارة ومستعطفين تارة أخرى ومتظلمين على كل حال من قسوة تلك المعاملة ومن ذلك الامتناع الذى لا طاقة لهم به ولا صبر لهم عليه وازدراء زوجاتهم لهم . وهم مستعدون أن ينفذوا كل ما تشير به أزواجهم وأن يأتوا بالمعجزات فى سبيل ما يبتغون من عطف وما يطلبون من وصل . فتبدأ فعلا المفاوضات وتنتهى إلى الصلح والوئام والطرب . »

إن الهجاء السياسى فى المسرحيات التى ذكرناها واضح كل الوضوح . وهدفه الأول والأخير هو كليون الرجل المتشبع بمذهب الديمقراطيين من سكان المدن ، وهو المشاغب الذى ندد أريسطوفان بخلقه السيئ و بميله الآثم إلى القسوة والعنت وبعده عن الروح اليونانى الخفيف . انشق على بريكليس أيام حرب البلوبونيز . وفى سنة ٤٣٠ عندما ثار الشعب على حاكمه كان كليون فى صف المتهمين ليفوز بثقة الشعب وعطفه . يلومه أريسطوفان على عنف الأساليب التى كان يتبعها لإقناع الشعب ، وعلى سوء سياسته الداخلية إذ أنه حاول بجميع الطرق هدم آراء الطبقات الراقية والغض من قدرها ومحو أثرها ، وهو فى سبيل هذا الغرض لا يترك غريزة خسيسة إلا استغلها . وهناك غرائز تذهب بالأفراد ، فكيف بالجماعات ، إلى حيث لا تريد . فهو تارة يرفع أجر القضاة ليبلغ رضاهم ، وتارة

يتهم الناس ويقودهم أمام المحاكم ليظهر للشعب أنه الزعيم الوفى الأمين الساهر على مصالحه .

وبسط أريسطوفان هجاءه على سياسة كليون الخارجية ؛ لأنه كان دائماً يحض أثينا على الطموح الباطل ، فلم يقنع بالسيادة على البحار بل كان يغرى الشعب بأحلام استعمارية خلابة . وكان يعالج الشؤون الخارجية التى تطلب مهارة وحكمة ودقة بمثل ما كان يبديه من استبداد وتطرف وانفراد فى الرأى والعمل . وكانت أنفته البغيضة تحول بينه وبين التروى والتفكير الطويل . وكان أريسطوفان يمقته لمعارضته التى لا هوادة فيها لأى مشروع صلح . وكان الشاعر يعلم ما للحرب من ويلات ولا يفهم كيف يشجع امرؤ على متابعتها .

وكان النضال يثير غضب الشعب ، وبنوع خاص من اشتد عليه الدهر من الريفيين الذين هجروا منازلهم خشية اكتساح العدو لأراضيهم وتساقطوا على أثينا من كل صوب ليأمنوا فيها ، لكنها ضاقت بهم وازدحمت مساكن الأهل والأصدقاء ، فلجأوا إلى المعابد والقلاع ،وهم عرضة لحرب ضروس ولأمراض فتاكة ، وقد نشأت عن هذا الضيق بالحياة ثورة على أعدائهم ورغبة ملحة فى مطاردتهم بكل ما أتيح لهم من القسوة والشجاعة . وأصبح إذ ذاك حديث السلم من الشجاعة التى ليس بعدها شجاعة . والجرأة من صفات الكاتب الحر الذى يقدر قداسة فنه و يرفع من شأنه غير مكترث بما تخلق له تلك الحرية من مشقة وهم . وكان أريسطوفان يعلم لكثرة ما جربه فى حياته أن الضحك دواء نافع ناجع يجد فيه الانسان شيئاً من التسلية والعزاء والنسيان ، ومخدراً لأعصاب متوترة ، وحلا هيناً لصعاب يعجز الجد عن حلها . وربما فكر فرد غير أريسطوفان أن يأتى بالبراهين الدقيقة والأدلة القاطعة والاعتبارات النظرية ليقنع سامعيه بوجاهة رأيه . ولكن أريسطوفان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . لذلك نراه اتخذ فى رواياته السياسية طريقة الهجاء والتهكم ومحاربة المسئولين عن الحرب وعلى رأسهم كليون . فصور أهل عصره وقد أعياهم القتال ونهك قواهم وأفسد عليهم الجو ودس الاضطراب فى نفوسهم وأثار الانشقاق بينهم . فمنهم من يرغب صادقاً أن تعود أيام الهناء ، ومنهم من يعارض الفريق الأول ، ومنهم من لا يقدم على عمل ولا يفكر فى حل بل يكتفى بمشاهدة غيره وتشجيعه بالكلام حيث لا تنفع إلا الأعمال .

هجا أريسطوفان كليون لشدة مابين نظرياتهما السياسية الجوهرية من تناقض

وما أبعد ما كان الأمد بين مؤيد للديمقراطية المعتدلة المحافظة على التراث الأدبى والخلقى القديم ، وبين رجل مثل كليون وأين ! كان السبيل إلى الوفاق بين كاتب يكره التعسف والغرور والطموح المسرف ، وحاكم لايحرص على طمأنينة الشعب وغضارة عيشه واحترام حريته !

كان كل منهما فى عالم مختلف لا تجمع بينهما إلا تلك الساعات المضحكة كلما أتيحت للشاعر مناسبات النقد والهجاء .

ريموند فرنيس